مجلة أنثروبولوجيا ISSN: 2437-041X
مجلد: 07 عدد: 02 السنة: 2021 E-ISSN:2588-2325

دور ارتداء الكمامة في تغير الحياة اليومية بالجزائر -دراسة أنثروبولوجية لرصد التمثلات والممارسات-

The role of wearing a medical mask in changing daily life in Algeria - An anthropological study to monitor representations and practices-

لمياء مرتاض-نفوسي*،جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم،
lamia.mortad@univ-mosta.dz

تاريخ الإرسال: 2021/06/27 تاريخ القبول: 2021/08/27 تاريخ النشر: 2021/12/10

ملخص:

لطالما مرت البشرية بأزمات صحية. وقد اعترت الأزمات حياة الأمم منذ الأزل. بيد أنه قد توسع نطاقها في العصر الحديث وأضحت أكثر تركيبا، بمعنى أن المتغيرات التي أدت إلى حدوثها متعددة ومتنوعة ومتداخلة. ولن تمر الأزمة التي ترتبت عن تفشي جائحة كوفيد 19 بدون أن تحدث تغيرات تمس الأنساق القائمة برمتها، ولكن بشكل خاص النسق الاجتماعي.

ويعتبر ارتداء الكمامة في الفضاء العام من بين الممارسات الجديدة التي غيرت المنظر العام للحياة اليومية، خصوصا في المجتمع الجزائري الذي لم يعرف هذه الممارسة إلا مع أزمة كوفيد 19، كنموذج ثقافي دخيل على حياتنا اليومية، مما أثر بشكل أو بآخر في طبيعة العلاقات الاجتماعية وفي تفاعل الأفراد مع بعضهم.

فقد غدا ارتداء الكمامة سلوكا ثقافيا جديدا، غير ملامح الحياة اليومية بالجزائر، بما يسيره من منظومة قيمية، وبما يقترحه، بل وبما يفرضه من نماذج جديدة للفعل والوجود.

هذا المقال هو محاولة لتبيين كيفية تأثير ارتداء الكمامة في حياة الجزائريين، من خلال ملاحظات تم تجميعها ومقابلات أجريت مع مجموعة من المبحوثين.

الكلمات المفتاحية: تأثير، كمامة، أزمة، الحياة اليومية، تفاعل، تمثلات.

* المؤلف المرسل

Abstract:

Humankind has always gone through health crises. Crises have plagued the lives of nations since time immemorial. However, it has expanded its scope in the modern era and has become more complex, in the sense that the variables that led to its occurrence are multiple, varied and overlapping. The crisis resulting from the outbreak of the Covid-19 pandemic will not pass without changes affecting the entire existing systems, but especially the social system. Wearing a mask in public space is among the new practices that changed the general outlook of the daily life, especially in Algerian society, which only knew this practice with the Covid-19 crisis, as an intruder cultural model in our daily life, which affected in one way or another the nature of social relations and interaction between individuals. In this article, I will try to show how wearing a mask affects the lives of Algerians, through observations collected and interviews conducted with a group of respondents.

Keywords: Impact, Mask, crisis, daily life, interaction, representations.

مقدمة:

لقد تحول اليوم ارتداء الكمامة – الذي كان حكرا على الفضاء الخاص بالإطارات الطبية- إلى نموذج ثقافي مستجد في المجتمع الجزائري.

وهذا الفعل ليس منعزلا يخص الفرد لوحده، بل إنه يخص تنظيما جديدا ونموذجا ثقافيا جديدا يتبنى في الحياة اليومية، كشكل جديد من أشكال التواصل في ظل الجائحة، مما يسفر عن جملة من التفاعلات بين الأفراد.

فكيف يتمثل الأفراد ارتداء الكمامة؟ وهل غيرت من تمثلاتهم للذات وللعلاقة مع الآخرين؟

ويندرج ضمن السؤال الرئيسي سؤالان فرعيان اثنان، هما كالتالي:

- هل غير ارتداء الكمامة الحياة اليومية بالجزائر؟
- كيف أثر ارتداء الكمامة في الحياة اليومية بالجزائر؟

وتهدف هذه الدراسة تبيين كيفية تغيير ارتداء الكمامة –كممارسة يومية- المنظر العام للحياة اليومية بالجزائر، كنموذج ثقافي يحدد كيفية التواصل بين الأفراد، وبالتالي طبيعة وكثافة التفاعل بينهم.

بداية، كانت **للدراسة الاستطلاعية** التي أجريت أهمية قصوى للتعرف على مجتمع البحث ولتحديد أدق للإشكالية. كما مكنت هذه المرحلة من القيام بمقابلات أولية، بحيث أعدت صياغة بعض الأسئلة في دليل المقابلة.

وقد تم تبني **المنهج الإتنوغرافي** الذي يعتبر منهجا مرنا في المجتمعات الحديثة، بحيث يمكن من دراسة المستخدمين حتى وإن كان ليس لهم وجود مادي (كما هو حال الجماعات التي تتشكل عبر مواقع التواصل الاجتماعي) في موقع جغرافي محدد، بملاحظة تصرفاتهم في حياتهم اليومية وهي تحدث، بتسليط الضوء على السياق الذي تتم فيه عملية الاتصال، إذ تحول اليوم مع الدراسات الأنتروبولوجية الحديثة Home إلى Field، وField إلىHome. كما أضحت تجربة الباحث جزءا لا يتجزأ من مسار البحث، بحيث غدا موضوع الدراسة جزءا لا يتجزأ من التجربة اليومية للباحث التي يعيشها كطرف فعال فيها.

ويعتمد هذا المنهج على تقنيتين اثنتين: الملاحظة بالمشاركة والمقابلة. تطبق تقنية **الملاحظة بالمشاركة** (participating observation) عندما يشارك الباحث حياة الأفراد الذين تنصب عليهم الدراسة من الداخل، فيتمكن أكثر من فهم ما يلاحظه، وحتى إنه سيكون قادرا على إدراك منظومة تفكيرهم وآرائهم وأفعالهم.

وقد تم تطبيق الملاحظة بالمشاركة من خلال ملاحظة:

- كيفية ارتداء الأفراد للكمامة: هل تغطي جيدا الوجه أم جزءا منه؟
- أين توضع: على الوجه أم على الرأس أو في الذراع أو في الجيب...؟
- ومكان ارتدائها: في أماكن عامة أم في فضاءات خاصة؟
- الألوان المفضلة للكمامة: للذكور؟ للإناث؟
- شكل الكمامة وأي قماش هي مشكلة منه؟
- ماذا يفعل المرء عندما يكون يرتدي كمامة ويأتي أناس لمصافحته أو ضمه أو تقبيله؟

كل هذه الملاحظات ستكون ذات قيمة علمية، إذ ستمثل سندا عند تحليل وتفسير نتائج هذه الدراسة.

كان ذلك عن تبني الملاحظة بالمشاركة. أما **المقابلة** (interview) فتمكّن الباحث من جمع معطيات كيفية مباشرة من الميدان، بطرح جملة من الأسئلة على مجموعة من المبحوثين بشكل منظم.

بيد أنه أُجريت مقابلات مع المبحوثين في صيغتين اثنتين. تتمثل الأولى في الشكل المألوف للمقابلة عند مساءلة المبحوث اعتمادا على دليل مقابلة وذلك وجها لوجه، بتدوينها يدويا واستخدام المسجلة لتسجيلها (بالتأكيد بعد أخذ إذن المبحوثين).

ولكنه استحال ذلك في هذه الدراسة مع كل المبحوثين، إما لتواجدهم في مكان بعيد أو لرفضهم أن تكون المقابلة وجها لوجه، وخصوصا أنه في هذه الفترة كنا نمر بهذه الجائحة التي عقدت التواصل مع الآخرين بشكل مباشر، علما بأن الدراسة الميدانية كانت ما بين 15 فبراير إلى غاية 22 أفريل 2021، حيث كانت الجائحة لا تزال قائمة.

وبالتالي، كان من الصعوبة بمكان القيام بمقابلات مع كل أفراد العينة وجها لوجه. وهذا الواقع لا يعتبر في أيامنا عثرة أمام القيام بمقابلات، إذ تمكن وسائل الاتصال الحديثة من تجاوز هذه العراقيل. لذلك، بالإضافة إلى المقابلات وجها لوجه، فقد تم القيام بمقابلات عبر الهاتف المحمول، من خلال طرح الأسئلة الموجودة في دليل المقابلة.

كما تم القيام بمقابلات على الخط، عبر شكل Google forms.

وهكذا، يمكن القيام **"بمقابلات عن بعد"** والتي يسميها بعضهم **بالمقابلات الافتراضية** أو **الإلكترونية** أو **السيبرانية**، كما يحددها كل من Maubisson وAbaidi ب:"e-terview" (Fenneteau, 2015, p.27)، حيث يمكن عن طريق هذا الشكل تجاوز الصعوبات التي يمكن أن يواجهها الباحث عندما يتعذر عليه القيام بمقابلات "وجها لوجه".

أما عن طبيعة مجتمع البحث فقد تمثل في مجموع الحاصلين على شهادات جامعية وأولئك الذين في طور الحصول عليها، من تخصصات متباينة. وأما عن عناصر عينة هذه الدراسة فتمثلت في 35 مبحوث، يتراوح سنهم ما بين 20 و56 سنة، من تخصصات جامعية مختلفة، متواجدين في ولايات (محافظات) مختلفة: مستغانم، وهران، معسكر، تيزي وزو، بجاية، ورقلة، النعامة، غليزان، التنس.

ولتفسير هذه الظاهرة، فقد تم تبني مقاربة التفاعلات الرمزية (symbolic interactionism). ولقد استفاد Mead من أفكار Cooley وقام بتطويرها، حيث اقترح نظرية التكوين الاجتماعي "للذات" "كلحظة حيث يكون الفرد واعيا بنفسه عن طريق وجهات نظر الجماعة التي ينتمي إليها"(Judith, 1992, p.09)، موضحا أن الاتصال يتكون ويبنى من خلال التواصل مع الآخرين عبر رموز جماعية يرتكز عليها.

من هذا المنطلق، تم تبني التفاعلية الرمزية لتبيين كيفية تفاعل الأفراد انطلاقا من المعاني التي يولونها للأفراد وللأشياء التي من حولهم استنادا إلى منظومة من الرموز، من خلال التمثلات التي يقدمونها حول الدور الذي يلعبه ارتداء الكمامة في حياتهم اليومية مع تفشي جائحة كوفيد 19.

1. استخدامات القناع ووظائفه:

قد يخلط بعضهم بين مفهومي: القناع والكمامة. بيد أنه في الواقع يختلف القناع عن الكمامة من حيث الشكل؛ فالكمامة أو الكمام في الأصل هو "ما يكم به فم الحيوان لئلا يعض أو يأكل"(*المنجد في الأعلام*، 1973). أما علميا، فهي غطاء يغطي المستوى السفلي للوجه (الأنف والفم) تفاديا للإصابة بالعدوى أو لنقلها للآخرين. أما القناع فهو غطاء أو شيء صلب أو رداء يغطي الوجه أو معظمه، ممثلا واجهة مغايرة للوجه الحقيقي لصاحبه. ولكن، سواء أتعلق الأمر بالقناع أو الكمامة فكلاهما يغطيان وجه الإنسان بكامله أو جزءا منه، بغية تأدية دور معين. وقد تم استعمال القناع في عدة حضارات، منها المنقرضة ومنها التي لا تزال قائمة إلى يومنا هذا، بغية تأدية وظائف متعددة.

1.1. الاستخدامات الاجتماعية والدينية:

عبر تاريخ معظم الحضارات، كانت العديد من الأقنعة تؤدي وظيفة دينية. كما تؤدي الأقنعة في الحضارات القديمة والتي ما زال البعض منها قائما إلى يومنا هذا وظيفة ثقافية واجتماعية، نظرا للمكانة التي يحتلها القناع في تلك الحضارات. فهو لا يعتبر غرضا تزيينيا أو قطعة أثرية أو فنية، بقدر ما يعبر عن منظومة من الدلالات، كرمز ثقافي وكمؤشر عن مكانة اجتماعية معينة.

ففي إفريقيا، يقي القناع "ضد قوى الشر والأمراض ويضمن أمن الساكنة" (Les masques africains)، عبر ارتدائه في "الحفلات التنكرية والمهرجانات التي تشكل جزءًا من الاحتفالات الدينية." (A brief history of masks, 2020) وللقناع كتعبير من تعابير الوجه رمزية خاصة داخل كل قبيلة؛ فمثلا قناع Tchokwé (بجنوب الكونغو) يستخدم ليدل على "المرأة والأم المثالية"(Les masques africains)، رابطا إياه بالخصوبة. وكان لكبير الكهنة وللمعالج أو الشامان طوطمه الخاص. وقد كان يُعتقد أن لديه قوة كبيرة لا يستحوذ عليها البشر العاديون.

2.1. الاستخدامات الجنائزية والتذكارية:

استخدمت ولا تزال تستخدم الأقنعة المجسمة في العديد من المراسيم الجنائزية.. وكثرما استخدمت لتغطية وجه المتوفى، ليتحول القناع في هذه الحالة إلى وسيط للتواصل بين عالم الأحياء وعالم الأرواح.

3.1. الاستخدامات المرتبطة بالأعياد:

ومهما كان شكلها، يفترض بأن الأقنعة المستخدمة لهذا الغرض هي من أجل التنكر "بخلق شخصية مؤقتة ومسلية، مما ينتج غالبًا عنها الخلط الفكاهي، أو لتحقيق إخفاء هوية المخادع أو المحتفلين."(A brief history of masks, 2020)

وهذا النوع من الاستخدامات لا يزال يستخدم إلى يومنا هذا، كما هو الحال بجزر المحيط الهادي أو في العديد من بلدان أمريكا اللاتينية.

4.1. الاستخدامات المسرحية:

وظف القناع في المسرح القديم ولا يزال يوظف حتى في المسرح الحديث ليكون في صميم التمثيل الدرامي، ليأخذ مكانة خاصة في العمل المسرحي. بيد أنه "يضع الممثلين في تحد ليكونوا دقيقين في صياغتهم الإيمائية والتعبير الجسدي، مع الحفاظ على التوقف الإرادي لعدم التصديق، لخلق أداء عاطفي حقيقي."(A brief history of masks, 2020)

5.1. الاستخدامات الطبية:

لقد لعبت الأقنعة دورا مهما لعلاج الأمراض وحتى الوقاية منها. وفي بعض الثقافات، يمكن "في المجتمعات السرية أن يطارد الأفراد الذين يرتدون، قناعا الأرواح المريضة من القرى والقبائل بأكملها."(A brief history of masks, 2020)

وقد أحصي في بعض المجتمعات، كما هو حال سريلانكا "تسعة عشر قناعا مختلفا." (A brief history of masks, 2020)

وتاريخيا، استخدم القناع في المجال الطبي منذ فجر التاريخ البشري، إذ عثر بمغارة الإخوة الثلاثة بفرنسا على "رسم يعود إلى 17000 أو 20000 سنة، يمثل طبيبا-ساحرا يغطي وجهه قناع مخيف".(Galmiche J-M., 1999, p.p 8-14)

ولكن، وبدون أن تكون للأطباء دراية كاملة عن طبيعة الأوبئة وكيفية التصدي الفعال لها، بيد أن سنت قوانين خاصة بالحجر الصحي تم تعميمها بشكل تدريجي، حيث كان تضارب في الآراء حول ضرورة ارتداء الكمامة أثناء إجراء العمليات الجراحية.

ولم يعرف ارتداء الكمامة ذلك البعد العالمي الشمولي -كأسلوب لتفادي الإصابة بالعدوى- إلا مع تفشي فيروس كوفيد 19، كأسلوب للوقاية من الجائحة.

2. نتائج الدراسة الميدانية:

لتحليل المقابلات، تم الاعتماد في هذه الدراسة على **التحليل الموضوعاتي**، حيث يتم من خلال هذا التحليل تقليص المعطيات المجمعة في المقابلات التي تم إجراؤها.

يقوم الباحث بهذا النوع من التحليل عند القراءة المتعددة لكل مقابلة. فالمواضيع لا تظهر دائما من الوهلة الأولى؛ فهي تتحدد تدريجيا عند كل قراءة، خصوصا المواضيع الفرعية. (مرتاض-نفوسي، 2017، ص. 194)

وبالتالي، المقابلات التي أُجريت مع عناصر عينة الدراسة قسمت إلى مواضيع فرعية.

1.2. ردة الفعل إذا جاء أحدهم وأراد احتضان أو تقبيل المبحوث في ظل هذه الجائحة:

عن مسألة ردة الفعل إذا جاء أحد الأصدقاء وأراد احتضان أو تقبيل المبحوث في ظل هذه الجائحة، فقد رصدت ثلاثة اتجاهات. يجيب ممثلو الاتجاه الأول والذين يمثلون معظم الإجابات بأنهم سيرفضون إن تقدم أحدهم وأراد احتضانهم أو تقبيلهم. أما ممثلو الاتجاه الثاني فيجيبون بأنهم يقبلون ذلك. وبالتساوي مع التيار الثاني، يجيب ممثلو التيار الثالث بأنهم يقبلون ذلك، ولكن على مضض.

بداية، أجاب معظم المبحوثين بأنهم لا يقبلون إذا جاء أحد الأصدقاء وأراد احتضانهم أو تقبيلهم. وهذا ما صرح به "مبحوث 6، دكتوراه فنون، 33 سنة":

"لا أوافق التزاما بقواعد التباعد للحفاظ على سلامتي وسلامة عائلتي. ولقد تلقينا العديد من الانتقادات الحادة بسبب هذا الموقف." وبالفعل، تبقى شريحة من المجتمع الجزائري حريصة على تطبيق البروتوكول الصحي الخاص بالجائحة، من إجراءات التباعد الجسدي المتمثلة في عدم المصافحة وعدم التقبيل وارتداء الكمامة بشكل منتظم، وتنظيف للأيدي وتعقيم المساحات التي تلمس بشكل دوري. بيد أن ذلك يخلق في العديد من المرات إحراجا لهؤلاء، وحتى إنه يخلق نزاعات على الصعيد الاجتماعي. لذلك فقد قلبت هذه الجائحة حياتنا وعاداتنا رأسا على عقب، والمعياري تحول إلى لا معياري، واللامعياري إلى معياري.

فقد أحدثت هذه الجائحة اختلالات في نماذج السلوك وفي الأنساق القائمة وتغيرات سريعة ومكثفة في الحياة اليومية، خالقة اختلالات في المنظومة القيمية، على وجه التحديد بالجزائر، حيث لا يزال النسق الثقافي بما يضمه من قيم ونماذج للسلوك والوجود يحتل جزءا مهما في توجيه الفاعلين نحو منظومة معيارية.

ولكن، مع هذا الواقع الذي فرضته الجائحة، يحس الإنسان بأنه ليست له معايير توجهه، بحالة من الضياع (anomy) التي تحدث عنها Durkheim، عندما وصف الحالة غير الطبيعية لتقسيم العمل في المجتمعات الحديثة.

بيد أن هذا الإحساس بالضياع هو نتاج عدم وجود معالم نهتدي بها، ونحن في خضم الأزمة، وبسبب انخفاض عدد الإصابات بالعدوى بالجزائر(على الأقل في فترة إجراء هذه الدراسة)، إلى درجة

أن العديدين -حتى أولئك الذين كانوا في بداية الجائحة يشددون على الطابع الخطير لهذه الجائحة- غدوا يشككون اليوم في أن هذا الوباء لا يزال فتاكا!

وبالفعل، فقد لاحظت أن العديد من الذين كانوا متخوفين من الجائحة في بدايتها، لم يعودوا يرتدون كمامات منذ بداية أكتوبر 2020، وحتى إنهم بدؤوا يصافحون ويقبلون بعضهم ولا يتركون مسافة عند تواجدهم مع بعضهم.

هذا من جهة. ومن جهة أخرى، أفصحت مجموعة أخرى من المبحوثين بأنهم يقبلون إن تقدم أحدهم وأراد احتضانهم أو تقبيلهم، بكل اقتناع من طرفهم. وهذا ما يؤكده "مبحوث 13، ليسانس في الإعلام الآلي، 20 سنة" قائلا:

"أوافق، في الوقت الحالي الحالات أقل والوضع أفضل".

ويؤكد هذا التصريح "مبحوث2، طالب في الطب، 18 سنة" قائلا:

"في بداية الجائحة كنت أتفادى ذلك. وبعدها أصبح الأمر عاد، كوني ابتعدت عن البرامج الإعلامية ومتابعة الإحصائيات الخاصة بالجائحة والتهويل الإعلامي."

فأثناء فترة النزول إلى الميدان لإجراء هذه الدراسة، كانت الحالة الوبائية بالجزائر تبدو جد متحكم فيها، تبعا للأرقام التي كانت تصدر عن وزارة الصحة يوميا. كما أن الخطاب الجديد المتداول في هذه الفترة بين عامة الناس يفضي إلى أنه "لا يوجد مرض"، إما لأن المختصين تبعا لهؤلاء يضخمون الوضع، أو بكل بساطة لجهلهم! وبالتالي، ومهما كان التفسير المقدم للوضعية الوبائية في هذه الفترة، تمكن الناس من الرجوع تدريجيا إلى الحياة الطبيعية المتمثلة بالجزائر في تبادل الزيارات وحضور المآتم والأفراح، وخصوصا عدم ارتداء الكمامة!

وحتى إن معظم مرتديها يضعونها على الدقن ولا يضعونها كما يجب أن توضع إلا في بعض الأماكن العامة. وحتى إن الطلبة الذين ندرسهم لا يرتدونها إلا إذا طلب منهم ذلك، ويفتخرون بأنهم يحملونها في حقائبهم! اللهم بعض الحالات النادرة التي يتقيد فيها بعضهم بارتدائها!

وبالتساوي مع عدد المبحوثين الذين يمثلون الاتجاه الثاني، أجاب باقي المبحوثين بأنهم يقبلون إذا جاء أحد الأصدقاء وأراد احتضانهم أو تقبيلهم، ولكن على مضض. وهذا ما ذهبت إلى قوله "مبحوثة 4، دكتوراه في علوم الإعلام والاتصال، 34 سنة":

"في الغالب الساحق من الأحيان لا أوافق. ولكن حدث أن قبلت أو احتضنت أشخاصا، إما اضطرارا أو حرجا".

وهذا ما يحدث فعلا كل يوم بالجزائر؛ فقد يضطر المرء حتى الذي يحافظ على البروتوكول الصحي إلى مصافحة أو تقبيل أو ضم الذي يتقدم إليه، ولكن على مضض، حتى لا يحرجه، ولكن أيضا

حتى لا يهمش. فالعديد ممن يحترمون الإجراءات الوقائية يجدون أنفسهم في معزل عن الآخرين، لا لسبب إلا لأنهم لا يتصرفون مثلهم!

2.2. دوافع وضع أو عدم وضع كمامة:

من خلال مساءلة أفراد العينة، فقد تبين بأن كل المبحوثين يرتدون الكمامة من خلال اتجاهين متساويين اثنين. يجيب ممثلو الاتجاه الأول بأنهم يرتدون الكمامة بشكل مستمر. ثم يجيب ممثلو الاتجاه الثاني بأنهم يرتدون الكمامة بشكل متقطع. وفي كل حالة، يقدم المبحوثون جملة من التبريرات.

بداية أجابت المجموعة الأولى من المبحوثين بأنهم يرتدون الكمامة بشكل مستمر وعيا بخطورة الوباء، تبعا لتصريح "مبحوثة 10، ماستر في علوم الإعلام والاتصال، 40 سنة":

"أضعها حتى لا تنتقل العدوى لي، وحتى أنا بدوري لا أنقلها لغيري."

وبالفعل، فالوعي بخطورة الجائحة لا يعني أن يكون المرء أنانيا ولا يفكر إلا بذاته؛ فالوعي يعني أنه يدرك خطورة الوضعية الصحية بالنسبة إليه وبالنسبة إلى الآخرين.

فضلا عن ذلك، يتعين إدراك أن الصحة مسألة عامة وليست خاصة؛ فهي لا تمس الفرد لوحده إذ إنه لا يمكن أن يعيش بمعزل عن الجماعة؛ فهي مسألة تمس الجميع، من خلال الوعي الذي يتعين على الأفراد والجماعات تبنيه، مع كل الإجراءات والتعليمات المرتبطة به لتجاوز هذه الجائحة.

كما أن الكمامة توضع بشكل مستمر نظرا "لطبيعة عملي والتحركات اليومية تجعلني أتخوف من العدوى المباشرة"، تبعا "لمبحوث 29، معلم في الطور الابتدائي، 34 سنة".

فطبيعة العمل التي يلتقي فيها الموظفون في فضاءات مغلقة، تجعل احتمال نقل العدوى مرتفعا. لذلك، يفضل هؤلاء الصبر وتحمل ارتداء الكمامة بشكل مستمر، تفاديا للإصابة بالعدوى.

وفي الأخير، أجاب أحد المبحوثين بأنه يضع الكمامة بشكل مستمر "حتى أكون مثالا"، تبعا "لمبحوث 16، ماستر في العلوم التجارية، 23 سنة".

فهنالك من يرى بأنه يجب أن ترتدى الكمامة لتعكس مدى وعي وانضباط صاحبها ومدى احترامه للبروتوكول الصحي، حتى يتبعه الآخرون وحتى يتحول هذا الفعل إلى سلوك يومي.

هذا من جهة. ومن جهة أخرى، صرح ممثلو المجموعة الثانية من المبحوثين بأنهم يرتدون الكمامة بشكل متقطع، "للوقاية طبعا، خاصة في الأماكن العامة وأماكن العمل"، تبعا لتصريح "مبحوث 6، دكتوراه فنون، 33 سنة".

وبالفعل، فبعدما طالت الأزمة ووصل البحث العلمي إلى التعرف على كيفية انتقال العدوى، لم يعد الأفراد متخوفين كما كان من ذي قبل (في فترة إجراء هذه الدراسة). لذلك، لم يعودوا يرتدون الكمامة لما يتواجدون لوحدهم. كما لم يعودوا مهوسين بتنظيف الأيادي والمساحات التي تستخدم

بشكل يومي كما كان الحال من قبل؛ فقد حل "المنطق" محل الخوف والقلق وحالة الارتياب التي كانت تصاحبنا لأشهر عند بداية الجائحة.

كما لا يجب أن ننسى مسألة في غاية الأهمية والمتمثلة في أن اقتناء الكمامات والمحلول الكحولي قد خصصت له ميزانية خاصة، مما أثقل كاهل العديد من الأسر. لذلك، سيجيب بعض المبحوثين بأنهم لم يعودوا يرتدون الكمامات بشكل مستمر، بحيث "أضعها وقت الزحمة أو مناطق أشك في صحتها ...ولا أضعها لأنها مصروف"، تبعا "للمبحوث 26، طالب في الطب، 22 سنة".

فضلا عن ذلك، فقد أجاب بعض المبحوثين بأنهم يرتدون الكمامة بشكل متقطع "لأنها مضرة بالصحة. فالمرء عندما يضعها يبقى يتنفس فقط الهواء الذي يخرج من فمه والذي هو في الواقع ليس نظيفا. فيحس بأنه بحاجة إلى هواء نقي يتنفسه. فكل الكمامات لا تخضع لمعايير صحية. مع هذه الأزمة كل واحد أضحى يصنع الكمامات، بدون أي معايير علمية"، تبعا للمبحوث رقم 35، مهندس، 56 سنة.

وبالتأكيد أن كل واحد منا يتذكر حرب الأقنعة التي اندلعت في بداية الجائحة، وكيف أن العديد من المؤسسات التي لم تعد تعمل في بداية الأزمة قد حولت نشاطها التجاري إلى صناعة الكمامات والمحلول الكحولي، بدون أي خبرة علمية. وبالفعل، فقد بينت بعض الدراسات الجادة بأن ارتداء الكمامة لوقت طويل له آثار جانبية على صحة مستخدمها.

كما أجاب بعض المبحوثين بأنهم أضحوا يرتدون الكمامة بشكل متقطع "في الطاكسي، لأنها أضحت إلزامية"، تبعا لتصريح "مبحوث 20، دكتوراه في السينما، 36 سنة".

كل هذه الأسباب هي التي جعلت أصحابها لا يرتدون الكمامات بشكل مستمر.

3.2. الرسالة الموجهة لواضع الكمامة للآخرين، خصوصا لأولئك الذين لا يضعون كمامة:

من خلال تجميع الإجابات عن مسألة الرسالة الموجهة لواضع الكمامة للآخرين، خصوصا لأولئك الذين لا يضعون كمامة، أجاب معظم المبحوثين بأن هنالك رسالة معينة، والمتمثلة أساسا في ضرورة التحلي بالوعي لمواجهة الجائحة. وهذا ما ذهبت إلى تأكيده "مبحوثة 17، ماستر علوم تجارية، 23 سنة" قائلة:

"حقيقة لا أدري ماذا أقول ... هل أنصح راشدا مثلي يعلم بخطورة الوضع بوضع الكمامة؟ لكن، أرجو أن ينتشر الوعي العام قبل فوات الأوان. أرجو أن يلتزم كل بواجبه بارتداء الكمامة والحفاظ على مسافة الأمان لسلامة نفسه وغيره."

فضرورة التحلي بالوعي هو الهدف المبتغى والرسالة التي يحملها واضع الكمامة، خصوصا لأولئك الذين لا يزالون يشككون في خطورة الجائحة، بعد مرور أكثر من سنة على تفشي الوباء، وباستمرار حصادها لآلاف الموتى يوميا.

فقد لوحظت في الفترة الأخيرة "لا مبالاة...وأصبح الناس لا ينصحون ولا يقبلون النصيحة بشكل عام"، هذا ما صرحت به "مبحوثة 9، ماستر في علوم الإعلام والاتصال، 40 سنة".

فبالرغم من الارتفاع المجدد لحالات الإصابات والموتى المسجلة بالجزائر في فترة الدراسة الميدانية، بيد أنه لوحظت عدم المبالاة وعدم إدراك خطورة الوضعية الوبائية من طرف الكثيرين، خصوصا ونحن كنا في شهر رمضان، بحيث يعتبر فرصة للخروج في الفضاءات العامة وتبادل الزيارات، وكأنه لا توجد جائحة إلا من خلال الترويج والتهويل الذي تقوم به وسائل الإعلام والاتصال!

هذا من جهة. ومن جهة أخرى، رصدت إجابة واحدة يجيب فيها المبحوث بأنه لا توجد رسالة موجهة لواضع الكمامة للآخرين، خصوصا لأولئك الذين لا يضعون كمامة.

وما يتعين إدراكه هو أن ارتداء الكمامة يمثل شكلا من أشكال التواصل في ظل هذه الجائحة، باعتبار الاتصال "تجربة أنتروبولوجية" تبعا Dominique Volton، بمعنى أنه من خلاله يتبادل الأفراد والجماعات الرسائل بينهم، عبر نموذج ثقافي معين. فلا يمكن تصور مجتمع بدون اتصال، يعيش فيه كل فرد بمعزل عن الآخرين، بحيث تخلق بشكل مستمر أشكال جديدة للاتصال بين البشر.

4.2. تمثلات المبحوثين في الذين يرتدون كمامة من مارس 2020 إلى يومنا هذا:

من خلال تجميع الإجابات حول هذه المسألة، رصدت اتجاهين اثنين. يتمثل ممثلو الاتجاه الأول والذين يمثلون الأغلبية الساحقة بأن وضع الكمامة في الجزائر أضحى سلوكا يوميا. أما ممثلو الاتجاه الثاني فيتمثلون بأن ارتداء الكمامة في الجزائر لا يعتبر سلوكا عاديا.

بداية، يتمثل معظم المبحوثين بأن وضع الكمامة في الجزائر أضحى سلوكا يوميا، فهو يعتبر "سلوكا طبيعيا. أصبحت لدينا ثقافة "تصرفات الحواجز". ولكن، مستحيل أن نصل إلى وعي الآسيويين في وضع الكمامة مثلا عند الإصابة بمجرد إنفلونزا"، هذا ما صرح به "مبحوث 35، مهندس، 56 سنة".

فقد أضحى ارتداء الكمامة جزءا لا يتجزأ من الحياة اليومية بالجزائر، حتى وإن لم نصل ولن نصل إلى مستوى وعي الآسيويين، الذين تحول عندهم ارتداء الكمامة إلى ممارسة يومية ونموذج ثقافي معمم لا ينفصل عن الحياة اليومية. وحتى وإن لم نصل بعد إلى درجة الوعي لدى الآسيويين، إلا أن الملاحظ أنه كان "سلوكا غير طبيعي في البداية، لأن هذا كنا نراه في البلدان الكبرى كالصين والسعودية. أما حاليا فأصبح سلوكا طبيعيا، لأنه عمم على كافة الناس وأصبح أمرا عاديا رؤية شخص يرتدي كمامة"، تبعا "لمبحوث 20، دكتوراه في السينما، 36 سنة".

في حين، سجلت إجابة واحدة تقر فيها "مبحوثة 27، سنة ثالثة طب، 20 سنة" بأن ارتداء الكمامة في الجزائر لا يعتبر سلوكا عاديا، إذ "الكمامة قد تشكل عائق أحيانا"، وهذا ما سنتعرف عليه أساسا في المحور الموالي الخاص بالتعرف على إن كان ارتداء الكمامة حاجزا أمام التعبير عن المشاعر.

5.2. ارتداء الكمامة كحاجز أمام التعبير عن المشاعر:

فيما يخص مسألة إن كان ارتداء الكمامة يعتبر كحاجز أمام التعبير عن المشاعر أم لا، فقد رصدت ثلاثة اتجاهات متباينة. يتمثل ممثلو الاتجاه الأول والذين يمثلون أغلبية الإجابات بأن وضع الكمامة لا يعتبر حاجزا أمام التعبير عن المشاعر. أما ممثلو الاتجاه الثاني فيتصورون عكس الاتجاه الأول بأن وضع الكمامة حاجز أمام التعبير عن المشاعر. وفي الأخير، يتصور ممثلو الاتجاه الثالث بأن وضع الكمامة حاجز أمام التعبير عن المشاعر بشكل نسبي.

بداية، يتمثل معظم المبحوثين بأن وضع الكمامة لا يعتبر حاجزا أمام التعبير عن المشاعر، تبعا لتصريح "مبحوثة 23، دكتوراه في علم الاجتماع، 38 سنة" الذي يعكس هذا الاتجاه:

"لا أعتقد أنها حاجز لأنني لم أتلقى أي مشكل لحد الآن في التعبير وأنا أرتدي الكمامة".

فوضع الكمامة من هذا المنظور لا يمكنه بتاتا حجب ملامح الوجه، إلى درجة عدم قدرة الطرفين الاثنين من التواصل والتعرف على مشاعر الآخر. في حين أجابت مجموعة أخرى من المبحوثين بأنه بالفعل يعتبر وضع الكمامة حاجزا أمام التعبير عن المشاعر والأحاسيس، وهذا ما ذهبت إلى قوله "مبحوثة 34، طالبة في الميكانيك، 20 سنة": "بالتأكيد أن الكمامة حاجز أمام التعبير عن المشاعر. حتى الأساتذة مجبرون على خلعها لكي نفهم جيدا. فالواحد عندما تشاهد وجهه بالكامل تفهمه أكثر. ومثلا عندما أذهب عند العائلة الكبيرة لا يمكن وضعها، ليس لائقا. لا يمكن بها التعبير عن المشاعر والتكلم جيدا والتواصل والنقاش."

فقد خلق وضع الكمامة تمثلات جديدة عن الذات وعن الآخرين. ولكن ارتداءها يحجب التواصل المرئي مع الآخرين، بحجبه إيماءات الوجه، حيث أضحينا غير قادرين على إيصال ملامح الوجه، التي تعبر عن أحاسيسنا وردات فعلنا إزاء المواقف التي نتعرض إليها في حياتنا اليومية. كما أصبحنا في ذات الوقت غير قادرين على إدراك الآخر الذي نتعامل معه. فقد غير ارتداء الكمامة تمثلنا للآخر وعلاقتنا بالآخرين، واقع جديد جدد حياتنا اليومية. فالتفاعل اليومي بين الأفراد والجماعات يعتمد على شكلين اثنين من التواصل: التواصل الشفوي والتواصل غير الشفوي.

في هذا الصدد، لاحظت عبر بعض القنوات التلفزيونية الأجنبية بعض الأشخاص- وحاليا حتى في القنوات التلفزيونية العربية- الذين يرتدون كمامات "شفافة" حتى لا تحجب ملامح وجههم، خصوصا عند حضور بعض العروض الفنية وحتى بعض البرامج الترفيهية، إما بتغطية الأنف والفم (mask) فحسب، أو أنها تغطي الوجه بالكامل (visor).

وفي الأخير، أجاب باقي المبحوثين بأن وضع الكمامة يعرقل نوعا ما التعرف على أحاسيس وردة فعل الآخر، إذ "تحول دون بروز قرابة الثلثين السفليين للوجه، وهذا ليس بالأمر المعتاد ولا سهل

التقبل. لكن شخصيا لا أعتبر أنها حاجز أمام التعبير عن الأحاسيس والمشاعر بالمفهوم المطلق، لأن ذلك لا يمنع الكلام وباقي الجسد من التحرك، خاصة العينان اللتان تعتبران عنصرا مهما في تأويل لغة الجسد"، تبعا لتصريح "مبحوثة 4، دكتوراه في علوم الإعلام والاتصال، 34 سنة".

من هذا المنظور، فبالرغم من حجب الكمامة ثلثي الوجه، بيد أنه يمكن التعرف على ردة فعل الآخر، لأنه ليس الفم هو لوحده يعبر عن مواقف وردات فعل صاحبه، بل هنالك أجزاء أخرى في الجسد التي تعبر عن ذلك كحركة الأيدي والأرجل، وخصوصا العينين.

6.2. تفضيل نوع معين من الكمامة:

عن مسألة تفضيل نوع معين من الكمامة، أجاب معظم المبحوثين بأنه لا توجد كمامة مثالية، اللهم تلك المتمثلة في الكمامة الطبية. في حين، رصدت بعض الاستشهادات التي يدلي فيها أصحابها بأنه بالفعل يوجد نوع معين من الكمامات.

بداية، صرح معظم المبحوثين، بأنهم يفضلون نوعا معينا من الكمامة، والذي لا يتعلق بجمالها أو لونها، بقدر ما يرتبط بفعاليتها، مؤكدين على نموذج الكمامة الطبية، تبعا "للمبحوثة 4، دكتوراه في علوم الإعلام والاتصال، 34 سنة":

"لا أعتقد ذلك بشكل خاص. الأهم قبل الجماليات سواء للذكر أو الأنثى هو فعالية الكمامة. إذا تحقق هذا الشرط تبقى مسألة أذواق وأشكال، كل يختار ما يناسبه."

فوضع الكمامة لا يخضع للإستتيك بقدر ما يخضع لمنطق صلاحيتها وفعاليتها.

بيد أنني رصدت مجموعة أخرى من المبحوثين الذين أجابوا –عكس الاتجاه الأول- بأنه توجد كمامة مثالية "خاصة بالنسبة إلى السن؛ فالطفل الصغير يجب أن يكون له مقاس تبعا لوجهه. أما بالنسبة إلى الذكر والأنثى فالأمر لا يهم. فهي ليست للزينة إنما هي للوقاية"، تبعا لتصريح "مبحوث 3، تحضير دكتوراه في علوم الإعلام والاتصال، 34 سنة".

فتمثل كمامة مثالية ليس مقرونا بشكلها أو بلونها، بل بملاءمتها لسن الطفل الذي يرتديها؛ فالكمامة الموجهة للكبار لا تصلح بتاتا للوقاية للأطفال. فيتعين أن يتماشى مقاس الكمامة مع الوجه حتى تكون فعالة.

والملاحظ وجود أشخاص وتحديدا العديد من الإناث اللواتي يحبذن ارتداء كمامة تتماشى مع الألوان التي تزين ثيابهن، لا لشيء إلا وأن تتماشى هذه الممارسة اليومية مع أذواقهن.

7.2. استمرارية وضع الكمامة:

عن موعد الاستمرار في وضع الكمامة، رصدت ثلاثة اتجاهات تعكس تمثلات المبحوثين عن هذه المسألة، حيث يتصور معظم المبحوثين بأنهم سيستمرون في ارتداء الكمامة إلى أن يختفي الوباء

نهائيا. في حين، تتصور مجموعة من المبحوثين بأنهم سيستمرون في ارتداء الكمامة إلى أن يتم اكتشاف لقاح فعال. وفي الأخير، أجاب المبحوثون المتبقون بأن هذه الجائحة كانت تجربة مريرة، ولكنه من خلالها اكتسب الأفراد نماذج جديدة للتصرف.

بداية، يتصور معظم المبحوثين بأنهم سيستمرون في ارتداء الكمامة إلى أن يختفي الوباء نهائيا "عند تناقص حالات الإصابة عبر العالم وفتح الحدود. آنذاك، أي عندما ستفتح الدول الكبرى حدودها سنعرف بأن الوباء لم يعد فتاكا. حينئذ، سأخلع الكمامة بشكل نهائي"، تبعا لتصريح "مبحوث 35، مهندس، 56 سنة".

فخلع الكمامة بشكل نهائي مرهون بمدى تطور الحالة الوبائية، ليس بالجزائر فحسب، بل في العالم بأسره. فقد أفشت الأزمة المترتبة عن تفشي فيروس كوفيد 19 عن الاختلالات التي كانت موجودة في الأنساق المختلفة وبينت مدى تداخل الأنساق مع بعضها البعض، بحيث لا يمكن لأي نسق أن يعمل بمعزل عن الأنساق الأخرى. كما بينت هشاشتها، مسألة لا يمكن التغافل عنها من اليوم فصاعدا. فالأزمة عالمية، ولا يمكن أن تكون الحلول إلا شمولية... هذا من جهة. ومن جهة أخرى، تتصور مجموعة أخرى من المبحوثين بأنهم سيستمرون في ارتداء الكمامة إلى أن يتم اكتشاف لقاح فعال. وهذا ما نرصده من خلال تصريح "مبحوث 22، دكتوراه في الأدب العربي، 50 سنة": "أرى بأن ارتداء الكمامة غير مرتبط بعدد الحالات المصابة بقدر ما هو مرتبط بمدى نجاح اللقاح في الحلول دون تحقيق إصابات جديدة."

وبما أننا على مشارف جويلية 2021، فإننا على علم جيد بالمنافسة الشرسة بين كبريات الدول لتصدير لقاحها، حيث بدأت حملات تطعيم واسعة في الدول العظمى وحملات "محتشمة" في دول العالم الثالث، ولكن، دون أن يمكن التأكد تماما إن كانت اللقاحات المسوقة فعالة بشكل قطعي.

وفي الأخير، أجاب المبحوثون المتبقون بأن هذه الجائحة كانت تجربة مريرة، ولكنه من خلالها اكتسب الأفراد نماذج جديدة للتصرف وبالتالي للوجود. لذلك، "أظن أن وضع الكمامة سيستمر حتي ولو زال هذا الوباء والداء، لأننا اكتسبنا ثقافة صحية خصوصا في القطاع الصحي. فارتداء الكمامة أمر وقائي وصحي حتى ولو زال هذا الوباء"، تبعا لتصريح "مبحوث 11، ماستر في علوم الإعلام والاتصال، 35 سنة".

ويربط هؤلاء المبحوثون الاستمرارية في وضع كمامة حتى في حالة وجود إنفلونزا موسمية، كما اعتاد الآسيويون على هذه التصرفات الواعية، كنماذج ثقافية تحرك حياتهم اليومية.

خاتمة:

لقد تبين عبر هذه الدراسة أن ارتداء الكمامة أضحى جزءا لا يتجزأ من الحياة اليومية بالجزائر، حتى وإن لم نصل ولن نصل إلى مستوى وعي الآسيويين. فارتداء الكمامة لم يكن ينتمي إلى ثقافتنا العربية. أما اليوم ومع هذه الجائحة ووعيا بما تحدثه من أضرار في العالم بأسره، فقد بات ضروريا أن تتحول إلى فعل "عاد"، يندمج كنموذج في الحياة اليومية.

في حين، وعكس ما كنت أعتقده، فقد أقر معظم المبحوثين بأن وضع الكمامة لا يعتبر حاجزا أمام التعبير عن المشاعر، إذ تبعا لهؤلاء يمكن التعبير عن المشاعر والأحاسيس عن طريق حركات الجسم الأخرى، بما فيها حركة العينين. بيد أنني رصدت مجموعة أخرى من المبحوثين الذين أكدوا بأن ارتداء الكمامة يحجب التواصل المرئي مع الآخرين، بحجبه إيماءات الوجه، مما يعرقل تبعا لهؤلاء عملية الاتصال وبالتالي التفاعل بين الأفراد والجماعات. هذا من جهة ومن جهة أخرى أقر معظم المبحوثين بأنه لا توجد كمامة مثالية، اللهم تلك المتمثلة في الكمامة الطبية. وفي الأخير، تمثل معظم المبحوثين بأنهم سيستمرون في ارتداء الكمامة إلى أن يختفي الوباء نهائيا، وعيا بخطورة الوضع، بتبني تصرفات وقائية مشتركة، والتي يعتبر ارتداء الكمامة في الأماكن العامة نموذجا عنها.

فمع هذه الجائحة، فقد تغيرت الممارسات اليومية التي أثرت في طبيعة التواصل بين الأفراد والمجتمعات، بخلق نماذج جديدة للفعل، على أنقاض نماذج التصرف التي كانت سائدة إلى وقت طويل، كظواهر جديدة جديرة بتسليط الضوء عليها.

ومن المؤكد أنه إذا أقيمت نفس هذه الدراسة في سياق زمني-مكاني مغاير، لكانت النتائج ستكون مختلفة، مما يؤكد بأن الفرد مركب (complex) بحيث يقيم علاقة تصارعية مع الظواهر الاجتماعية والثقافية التي يتفاعل معها في حياته اليومية، مع واقع لا يزال يتشكل يوميا، في محيط يعمه بشكل مستمر الارتياب، معيدا تحديد تمثلاته حوله.

قائمة المصادر والمراجع

المنجد في الأعلام .(1973) .بيروت

مرتاض-نفوسي ,ل .(2017) . تقنيات البحث الكيفي :المقابلة. الجزائر : دار هومة.

A brief history of masks. Consulté le 01 décembre, 2020, sur https://www.code.on.ca/files/assets/resources/117-outside-and-inside-mask/documents/drama-outsideandinside-blm3abriefhistoryofmask.pdf

Hervé, F. (2015). *L'enquête: Entretien et questionnaire.* Paris: Dunod. Galmiche J-M., G. (1999). *Médecine au néolithique. In : Hygiène et Médecine Histoire et actualité des maladies nosocomiales.* Paris: Louis Patiente.

Judith, L. (1992). *La science de la communication.* France: Presses universitaires de France. 2ème édition.

Les masques africains. (s.d.). Consulté le 01 décembre, 2020, sur https://www.enseignons.be/telecharger-une-preparation/62476

ملحق الدراسة

دليل المقابلة

- **التخصص:**
- **الجنس:**
- **السن:**

1- منذ مارس 2020، هل حضرت تجمعات (أفراح، مآتم)؟

لماذا؟

2- في ظل هذه الجائحة، ما هي ردة فعلك إذا جاء أحد أصدقاءك (صديقاتك) وأراد (أرادت) احتضانك أو تقبيلك؟ (توافق، لا توافق)

لماذا؟

3- هل تضع كمامة؟

باستمرار بين الحين والآخر لا تضعها بتاتا

4- لماذا تضعها أو لا تضعها؟

5- هل هنالك رسالة يوجهها واضع الكمامة للآخرين، خصوصا لأولئك الذين لا يضعون كمامة؟ فيم تكمن هذه الرسالة (الخطاب)؟

6- ما رأيك في الذين يرتدون كمامة من مارس 2020 إلى يومنا هذا؟(سلوك طبيعي، غير طبيعي)

ISSN: 2437-041X
E-ISSN:2588-2325

لماذا؟

7- هنالك من يعتبر الكمامة حاجزا أمام التعبير عن المشاعر والأحاسيس؟

إن كانت الإجابة بنعم، فكيف يكون ذلك حاجزا؟

8- هل تفضل نوعا معينا من الكمامات؟

نعم لا

9- ما هو لونها؟ ما هو شكلها؟ ما هي طبيعة القماش؟

10- هل يجب أن تكون هنالك كمامة مثالية، خاصة بكل جنس (كل أنثى، كل ذكر) وبكل سن؟

إن كانت الإجابة بنعم، فكيف يكون ذلك؟

11- هل تعتقد بأن وضع الكمامة أضحى فعلا عاديا بالجزائر؟ كيف ذلك؟

12- إلى متى يمكن الاستمرار في وضع كمامة؟ (الآن أو مع انتهاء التلقيح والوصول إلى العدد 0 من الحالات؟ أو عند إصابتك بالإنفلونزا الموسمية؟) لماذا؟